والصعيد الاجتماعي [ازداد عدد اليهود من ابناء البرجوازيـــة الذين تخلوا عن دينهم واعتنقـوا المسيحية] (ص ٣١) والصعيد الثقافي [انتجت البرجوازية اليهودية وقادت حركة الهاسكالا ، اي عصر التنوير اليهودي] (ص ٤٠) ، كما هـي الحال مع عصر التنوير الاوروبي ، والصعيـد الرابع السياسي [اعطت البرجوازية اليهوديـة ولاءها الكلي للحركات القومية ، في البلـدان الموجودة فيها ، واعتبرت ذلك جزءا من عمليـة تحررها الاجتماعي العام] (ص ٤٠) ، هـذا على الرغم من أن عملية تكون طبقة عاملة يهودية، كانت [عملية بطيئة وهزيلة نسبيا ، كما يقـول لينين] (ص ٤٣) .

اما في اوروبا الشرقية التي هاجر اليهود اليها، فحملت [البرجوازيات المحلية النامية ، بالتحالف مع الامراء الاقطاعيين ، لواء معاداة الساميـة ، باعتبارهـا الانعكاس الايديولوجي والسياسـي الفوقي ، لاندفاعها المادي باتجاه توسيع اعمالها] (ص ٤٥) فوقعت هجرة يهودية معاكسة الـى اوروبا الغربية [حركت نوازع لا سامية قوية في صفوف الطبقات الوسطى] (ص ٤٦) ولقد وصل هذا الوضع حالة التفجـر مع تدفق الجماهـير اليهودية من روسيا ، وهي في معظمها ذات طابع حرفي وبرجوازي صغير ، يقاسم الطبقة الوسطى الاوروبية لقمة عيشها وينافسها في اعمالها وهذا يفسر اولا ، قيام عناصر قيادية من البرجوازيـة اليهودية المندمجة ، في اوائل هذا القرن ، بدعـم قوانين الحد [من الهجرة اليهودية التي سنتهـا حكومات الدول الاوروبية الغربية] (ص ٤٢) ، ثانيا ، تقديم اليهود الفقراء [نسبة مئوية مرتفعة من قادة الحركات الثورية] (ص ٤٢) في اوروبا الشرقية .

كان لا بد لنا من هذه الاستفاضة في استعراض المقدمات الطويلة التي وضعها المؤلف ، في هـذا الفصل ، حيث يركز دعائم نظريته واطروحاته التي سيوردها فيما بعد عبر الفصول الباقية ، ولكـن لا بد لنا ، ايضا من التنويه ببعض الملاحظـات النقدية التي ستدعم نقدنا الاجمالي .

اولا ــ ان المؤلف استند بصورة مكثفة جدا على المصادر الكلاسيكية للنظرية الماركسية ، واخرجها ايضا من قالبها الاساسي والتاريخي ، وليس في هذا عيب فكري او دراسي ، ولكن نتج عن ذلك اننا كثيرا ما كنا نتابع فقرات المؤلف ، وكأنهـا تقارير انشائية ، لا تحصن موقفه الدراسي ، بقدر ما تنهك تسلسل موضوعاته ، وتلجئه، بالضرورة، الى استنباطات ميكانيكية بحتة ، وسنتعرض لهذه النقطة خلال نقدنا العام لهذا الكتاب ، والبديل الاساسي هو ان يأتي المؤلف بنماذج وقرائن مـن نصوص تاريخية تسجيلية محضة ، يستنتج منها ، جدليا ، ويقيم عليها نظريته ، هذه ملحوظة اولى.

ثانيا ــ لقد بنى المؤلف اطروحاته على اسس بحث المسألة اليهودية ، منـذ العصر الوسيـط الاقطاعي ، ولم يرجع الى اسباب تبني اليهـود لوظيفتهم التجارية والربوية ، هذه الاسباب مـن أين نبعت ، ومن أي مخلفات اجتماعية اقتصادية تاريخية انحدرت ، ولو طالعنا بهذا الصدد كتاب بديع امـين(٤) [المشكلة اليهوديـة والحركـة الصهيونية] ، لانتهينا مع المؤلف الى احتمالات اخرى تقودنا الى نتائج ونظرية مختلفة ،ومتعارضة مع احتمالات ونتائج ونظرية المؤلف ، سنعرض لها خلال نقاشنا لفصل قادم .

ثالثا ــ صحيح ان المؤلف وضع مقولة ماركس [لن نبحث عن سر اليهودي في دينه ، بل سنبحث عن سر هذا الدين في اليهودي الحقيقي] وهـي مقولة نصادق على صحتها مائة في المائة ، غير أن ماركس اعاد تأكيد هذه الصيغة ، وقام باتمامها، باتجاهها المنطقي الجدلي حين سجل فـي كتـابه العائلة المقدسة [انمـا يفسر انتعاش الديـن اليهودي بالعوامل العملية للمجتمع المدني الـذي انعكس وهميا في ذلك الدين](٥)، وباضافة المقولة التالية المعروفة جيدا لماركس « ان علاقات الانتاج القديمة تقف حجر عثرة امام تطور القوى المنتجـة النامية » نستطيع ، من ذلك ان نتبين الاهميـة الفائقة التي كان سيجدها المؤلف ، لو فتش عن تأثيرات الدين اليهودي في خلق المسألة اليهودية ، ولنقرا المقطع التالي الذي كتبه انطونيو غرامشي في مقاله « علامات استدلال اولية »(٦)، لنفسـر ونحدد ما نعنيه بالضبط بمقولة الدين في مفهومنا ، يقول غرامشي [لاحظ مسألة الدين ماخـوذا ، ليس بمعناه اللاهوتي ، وانما بمعناه العلمانـي ، كوحدة ايمان تجمع بين رؤية العالم ، وبين نمـط السلوك المتولد عنها ... لماذا نطلق على وحدة